جبل حبيب مركز مقاومة الغزو الأجنبي
بالشمال الغربي المغربي

حسن الفكيكي

إذا كنا متفقين على أن اختلاف أدوار الجبال المغربية بالنسبة للجهات التي تنتمي إليها، راجع إلى الظروف التاريخية المتأثرة بها، أمكن لنا هنا ملاحظة أن دور جبل حبيب جد بارز خلال الفترة الممتدة بين احتلال البرتغاليين لمدينة سبتة (1415) وجلائهم من مدينة أصيلا (1550). فمن أجل بسط الحديث عن هذا الدور أريد استغلال الدقائق المعدودة المخصصة لهذا العرض.

الواضح أن أي بحث عن عوامل تأكيد الأهمية التاريخية التي حظي بها جبل حبيب، منذ ما قبل القرن الخامس الهجري لابد له أن يشير إلى موقعه الجغرافي. فالجبل جزء من كتلة مرتفعة ممتدة من أراضي بني حسان، عبر بني يدر، إلى إشرافها على بسيط الهبط الأصلي[1]، يبرز في حدها الغربي بانحدار غربي نحو حوضي كل من واد الخروب (الواد الكبير) المحيط بالجبل من جهة الجنوب، ونحو وادي الحريشة الذي يرسم حدوده من جهة الشمال.

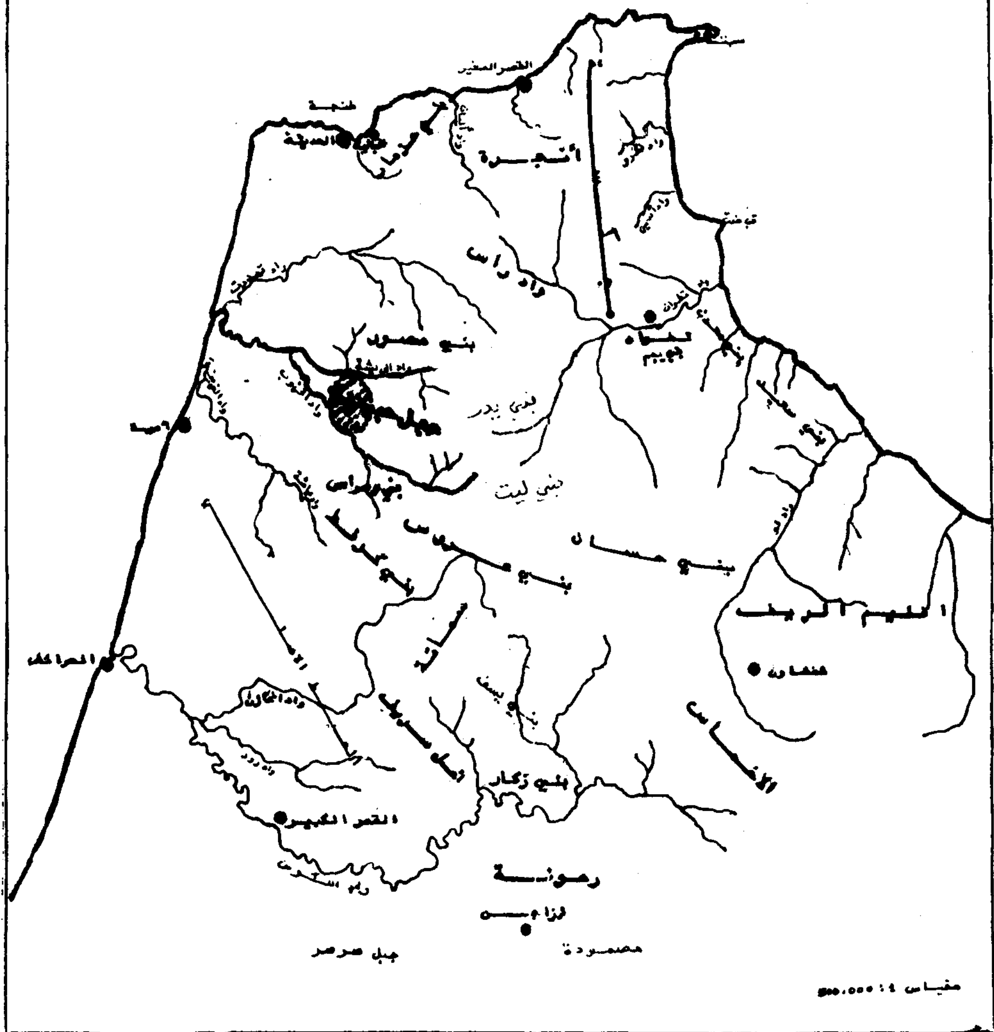
ويمكن تحديد المجال الجغرافي للجبل من الجهة الشمالية الشرقية بمجرى واد فْتَيَّتْ أو الزّاوية، المنساب من قمة بُوغَارْزِهَنْ، ويتمم حدوده من الجهة الشرقية مجرى واد الحَجْرِيِّين. هذا القسم هو ما يعرف بجبل حبيب الأصلي، الموافق لاسم المرتفع وقدم الاستيطان به، ويدعى حاليا بجبل حبيب الفوقي، تمييزا له عن جبل حبيب السفلى المشتمل على عدد آخر من القرى مستقرة بالبسيط المثلث الشكل المنحصر بين وادي الخروب والحريشة[2].

---

(1) نسمي الهبط الأصلي، تمييزا له عن إقليم الهبط البارز خلال القرن 16م، جميع الأراضي السهلية الممتدة بين أصيلا والقصر الكبير، انظر تفاصيل التميز في أطروحتنا : مقاومة الوجود الأجنبي بالثغور الشمالية المحتلة 1 / 32 ...

(2) تنبغي الإشارة إلى أن ما يدعى تاريخيا بجبل حبيب، لا علاقة له بالتعريف الجغرافي للجبل، إذ أنه ليس سوى تل لا يزيد ارتفاعه عن 400 م .

موقع جبل حبيب ضمن
إقليم الهبط (XV ـ XVI)



ويزيد في درجة أهميته الجغرافية كونه نقطة مرور أهم الطرق القديمة المتجهة نحو الشمال في اتجاه تطوان فسبتة ونحو القصر الصغير، عبر فج القور أو اللآما كما تدعوه المصادر البرتغالية(1). وعن طريق هذا الفج يتم العبور كذلك في اتجاه مدينة طنجة عبر مضرْس بن عمر، بينما يرتبط الجبل جنوبا بالقصر الكبير سيرا بموازاة مع الهوامش الشرقية للهبط الأصلي. والطريق مفتوح كذلك أمام جبل حبيب نحو مدينة أصيلا عبر أراضي قبيلة الغربية.

هذا الفراغ الجغرافي هو الذي يشغله سكان أطلق عليهم قبيلة جبل حبيب. وخلال القرن التاسع الهجري (15م) أمكن لنا عدّ سبع قرى مستقرة بجبل حبيب الفوقي مقابل قريتين أخريتين بالقسم السفلي(2)، ساهمت كلها في حركة المقاومة، أمّ تلك القرى جميعها هي قرية الخروب، أو ابن خروب حسب البكري، هي التي تحمل قبة حبيب بن يوسف الفهري، الفقيه الذي أعطى للجبل والقبيلة معا اسمه ليكون علمًا لهما منذ القرن الأول الهجري(3).

ويجمل بنا أثناء البحث عن الدور الجهادي الذي اضطلع به أهل جبل حبيب ما بين 1415 و 1550، تقسيم الفترة إلى مرحلتين الفاصل بينهما سنة احتلال كل من أصيلا وطنجة عام 1471. ويرجع هذا الفصل بين المرحلتين إلى الفرق الواضح الطارئ على حركة المقاومة ، من حيث التنظيم الذي عرفته أقاليم الشمال الغربي.

1 - جهاد جبل حبيب خلال المرحلة الأولى (1415 - 1471)

نعد جبل حبيب خلال هذه الفترة من الجهات التي شعرت بخطورة وقوع مدينة سبتة بيد البرتغاليين عام 818 / 1415، إذ أن أهله كانوا من السباقين إلى التضامن مع باقي جهات الشمال الغربي المغربي منذ اللحظات الأولى التي شمر فيها جبل

---

(1) Bernards Rodriguez: A nais de Arzila: 1/338-339-343.

(2) بالجبل الفوقي: الخروب، الجبلية، الريحانية، الروص، القلعة، الفلاسفة. والجبل السفلي: گور، حذيفة.

(3) لم تفدنا المصادر عن هذه الشخصية باستثناء ذكر اسمه، ويبدو أنه أحد الفقهاء الذين رافقوا موسى بن نصير في أواخر القرن الأول. ولا شك أن دوره هو الذي خلد اسمه هناك بالجبل والناحية.

مجكسة عن تنظيم مقاومة الوجود الأجنبي[1].

ويعود تصريح المصادر بمشاركة أهل جبل حبيب في ميدان سبتة إلى الإعلان عن مساهمته في الحصار المغربي الأندلسي للمدينة سنتي 1418 و 1419[2]. وفد الجبل بفرقتهم ورئيسها الذي لم يكشف لنا عن اسمه بعد[3]. كان دور الفرقة بارزا في ساحة القتال بانضمامها إلى الجناح الأيمن المكلف بالهجوم على برج الماء المريني، إلى جانب الشاوية وجزولة وبني حزمار ورجال مصمودة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا. وضد أهل جبل حبيب تلبية لنداء رئيس المجاهدين عبو بن محمد المجكسي[4].

ونتمكن لأول مرة من معرفة اسم قائد مجاهدي جبل حبيب ومقدمهم، إثر فشل الحصار المغربي الأندلسي لمدينة سبتة، يدعى أبو علي الحسن. والآن نستطيع أن نذكر أننا تعرفنا على هذه الشخصية منذ عام 1416، إذ أنه كان شيخ قرية وادي الرمل الأنجرية حين داهمت حامية سبتة القوية وتم إخلاء أهلها في السنة المذكورة[5]. ونستطيع كذلك أن نتابع أثر أبي عليّ والتجائه إلى جبل حبيب، حيث سيبرز على رأس فئة المجاهدين.

كان جبل حبيب إثر سقوط سبتة من ضمن حكم مدينة طنجة، التي ضبطها صالح بن صالح الياباني، حاكم مدينة سبتة قبيل سقوطها. وفي أغلب الاعتقاد أن اختيار أبي علي الحسن على رأس مجاهدي جبل حبيب يعود إلى حاكم طنجة، إذ أنه ساعده على إعادة بناء قلعة الخروب، وبنى لنفسه هناك قصرا لإحدى زوجاته.

---

(1) الجبل الممتد بين سبتة وتطوان، وهو ما يعرف حاليا بالحوز.

(2) Gomes Ianes de Zurar: Conica do D. Pedro de Meneses: 1/ 177.213.216.

(3) نظن أنه المدعو أبو علي الحسن الأنجري الآتي الذكر.

(4) من قرية بلوازن، كان حاكم جبل مجكسة منذ ما قبل احتلال البرتغاليين لسبتة، اختير رئيسا للمجاهدين في نوفمبر 1415.

(5) ح. الفكيكي: مقاومة الغزو الإيبيري بالشمال الغربي المغربي . د. د. الرباط 1991 . 1 / 105 - 106.

وما يهمنا من كل ذلك أن جبل حبيب أصبحت بيده قيادة الجهاد ضد سبتة ما بين 1421 و 1426، إذ أن فشل حصار سبتة السابق كانت قد ترك فراغا مهولا بساحة الجهاد، نتيجة استشهاد عبو بن محمد وعدد كبير من رؤساء مجكسة. وساعد أبو علي في مهمة جماعة جزولة المرابطة على الحدود بظهر جبل اغمارة المقابل لمدينة المحتلة[1].

كانت أوامر الغزوات تنطلق من جبل حبيب إلى جماعة الجزوليين لاتخاذ الأهمية، بناء على المعلومات التي وصلت إليه من مراكز مرابطة الشيخ عبد الرحمن الجزولي، مقدم جماعة جزولة، ونستطيع تتبع غارات جبل حبيب ما بين سنوات 1421 و 1424 من خلال المصادر البرتغالية المعتمدة[2].

وبعد اختفاء أهل جزولة من ميدان سبتة وجدنا أهل جبل حبيب بقيادة أبي علي الحسن إلى جانب القوات التي زحف بها الوزير الوطاسي، الوصي على عبد الحق المريني، المعروف أبو زكرياء يحيى، القادم لحصار سبتة عام 1426. ظهر أبو علي مع رجال درعة وخاصة الواصلين إلى الميدان برفقة الوزير الوطاسي.

اختفت عنا أخبار جبل حبيب وجهاده بعد سنة 1426، ومعها معلوماتنا عن أبي علي الحسن، وعن خلفائه أيضا، ولا يعود دور الجبل للظهور في ميدان الجهاد إلا سنة 1458، أثناء حصار عبد الحق المريني لمدينة القصر الصغير الذي أصبح ثاني مدينة مغربية محتلة بالشمال الغربي المغربي[3]. وآنذاك كان جبل حبيب ضمن أعمال القائد الشراط، حاكم طنجة. وإذا كنا نجهل اسم رئيس المجاهدين في ذلك الحصار، فأنه لم يمض وقت طويل لنعلم أن قيادة جبل حبيب قد آلت إلى أحد أبناء صالح بن صالح الياباني سنة 1461[4].

---

(1) كنت جماعة جزولية قد وصلت إلى ميدان سبتة، آتية من موطنها الأصلي بسوس سنة 1417، تلبية لدعوة رئيس المجاهدين عبو بن محمد، قاده إلى الميدان الشيخ عبد الرحمن الجزولي. (انظر : المرجع السابق . 1 / 118 - 147).

(2) تفاصيل تلك الغارات بكتابنا : مقاومة الغزو الإيبيري : 1 / 105.

(3) احتلت مدينة القصر الصغير يوم 12 ذي الحجة 861 / 21 أكتوبر 1458.

(4) G. E. Zurara: C. do D. Duarte de Meneses. p.262. Lisboa 1978.

كان صالح بن صالح الياباني قد توفي عام 1440 وبذلك آلت طنجة وأصيلا إلى غيره، وبقي من الأبناء إثنان بجبل حبيب، رغبا في استرجاع شهرة أسرتهما بتنظيم الغارات من هناك ضد القصر الصغير. وإذا تتبعا سرد "زورارا" عن انتقالهما إلى طنجة بحثا عن المساعدين من أصحاب والدهما، نجد أنهما في النهاية وضعا برنامجا للعمل يقتضي أولا جمع الأخبار عن حالة القصر والبرتغاليين به. وسيعملان هما من جهتهما، ثانيا، للبحث عن وسيلة الإضرار بالمدينة، بعد جلب الجنود خدعة منهم إلى موضع معلوم للقضاء عليهم على يد أهل جبل حبيب وبني گرفط وطنجة أيضا. ترتبت عن هذه الخطة التحام حمية القصر الصغير بالمقاومين بجوار المدينة، وتبين أن ولدي صالح بن صالح قد نالا المتوخى من الحملة[1].

وفي تلك السنة كان البرتغاليون قد ضاعفوا ضغوطهم ضد قرى بني حزمار[2] بهدف أخذ طنجة البالية، فكانت النتيجة هجرة عدد من الأسر نحو الجبال الجنوبية ومنها جبل حبيب، ويمكن الإشارة إلى أهل واد أليان، وخاصة سكان جبل ابن أبي العيش، وإلى أهل فحص طنجة أمثال : سط وعمر والنخلة والعنصر وشجرة التين وبني مكادة[3]. ونضيف إليهم أهل غاروزم الشرفاء العلميين.

نعتقد أن الغاروزميين، من أهل جبل أشاون كانوا قد وجدوا الطريق لرئاسة الجهاد بجبل حبيب بعد ولدي صالح الياباني وبعد عام 1461 دون التمكن من تحديد تاريخ وصولهم إليه. ولكننا نشير بالذات إلى فترة انتزاء محمد الشيخ الوطاسي أصيلا من مطاردة عبد الحق المريني للأسرة الوطاسية. وإذا علمنا أن تحصينه بالمدينة بدأ على الأقل منذ عام 1463، وما تلا ذلك مقتل عبد الحق المريني، آخر ملوك بني مرين عام 1465. أمكن لنا اختيار سنوات تصدر الغروزميين لحركة الجهاد بجبل حبيب فيما يقارب ذلك. ففي تلك الظروف أصبحت الرئاسة بيد الحسن بن محمد العلمي، المعروف بأبي جمعة، على الرغم من أننا لا نعرف شيئا عن نشاطه الجهادي ضد سبتة أو القصر

(1) المصدر السابق . ص. 265.

(2) بني حزمار المشار إليها هن كانت مواطنهم بين القصر الصغير وطنجة، بعيدة عن مواطنهم الحالية جنوب تطوان.

(3) ح. الفگيگي : مقاومة الوجود الإيبيري. 1 / 252 - 241 - 269 .

الصغير[1].

وإذا كانت رئاسة الجهاد بجبل حبيب قد انتهت بالنسبة لأبي جمعة سنة احتلال البرتغاليين لكل من أصيلا وطنجة (1471)، فأننا نعلم أن جبل حبيب سيرتبط بصفة نهائية بقيادة شفشاون، المركز الجهادي الجديد الناشئ خلفا لغاروزم. وبفضل هذا الارتباط سيستفيد الجبل من التنظيمات الجديدة التي طرأت على حركة الجهاد بالشمال الغربي المغربي، تحت قيادة علي بن راشد العلمي، ممّ هو داخل في نطاق المرحلة الثانية.

2 - جهاد جبل حبيب خلال المرحلة الثانية (1471 - 1550)

بدأ الوجه الجديد لمقاومة الشمال الغربي المغربي خلال هذه الفترة الثانية في اعتمادها على وحدة التكتل القبلي الجبلي وانتظامه في عدة مجموعات. ولا يفسر ظهور هذا التكتل سوى الظروف الجديدة التي فرضها اتساع نفوذ الوجود الأجنبي بالمنطقة.

ويهمنا من أقسام تلك الوحدات[2] مجموعة شفشاون التي ضمت إليها قبائل غمارة، مضيفة إليها القبائل المستقرة على هضاب بني حسان وبني ليت وبني يدر وجبل حبيب، لتصبح أراضي هذ الأخير المقدمة الجهادية ضد أصيلا وطنجة[3].

الواقع أن تاريخ مقاومة الغزو الأجنبي يتحفظ بجبل حبيب بمكانة بارزة خلال هذه الفترة. إذ أنه كان معروفا لدى الثغور المحتلة وناقلي أخبارها، تدعوه المصادر البرتغالية للإشارة إلى قلعة الخروب السابقة الذكر، تارة Farrobo وأحيانا Jibil Alhaibib وGibilfabib[4].

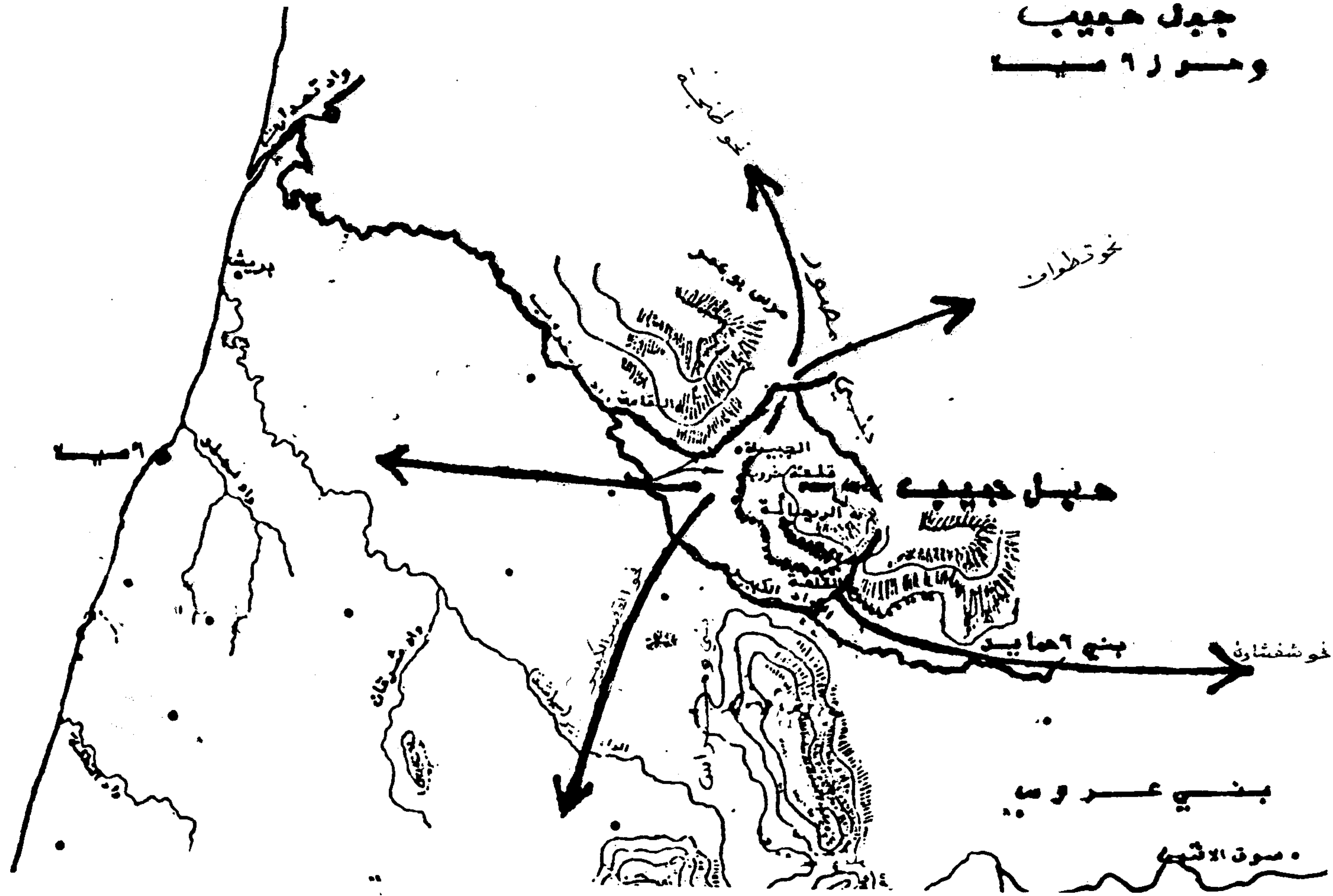
وينبغي الإشارة إلى الظروف الجديدة التي أحاطت بجبل حبيب نتيجة الوجود

(1) المرجع السابق : 1 / 310 - 314 .

(2) ظهرت بالشمال الغربي أربع مجموعات قبلية: مجموعات شفشاون، وتطوان، والقصر الكبير وإزاجن.

(3) ح. قگيگي : بني واشد، معلمة المغرب 6 / 403 .

(4) ينبغي الاحتراس مما سماه الإخباري البرتغالي باسم Farrobo، وهو يعني قرية الخراب الواقعة ببني حزمار القرن الخامس عشر. (ح. الفگيگي، مقاومة الوجود الإيبيري، 1 / 252 - 253.


جبل حبيب
وحوز أصيلا
نحو طنجة
نحو تطوان
جبل حبيب
أصيلا
نحو شفشاون
بني عروس
سوق الاثنين

البرتغالي بمدينتي أصيلا وطنجة المقابلتين له من الغرب والشمال على التوالي. فعلاوة على انسداد باب المدينتين في وجه أهل الجبل، فإن متداد نفوذ الغزاة خاصة من ناحية أصيلا شرقا في اتجاهه، جعلهم يخسرون جميع الأراضي السهلية المحيطة بالجبل من جهتي الغرب والجنوب، أي جميع الأراضي الخصبة الواقعة بين الجبل ومجرى كل من واد الخروب وواد الحريشة(1). وفوق ذلك فأن جبل حبيب تلقى سلسلة من الغارات لم تنج منها قرية من قراه طوال هذه الفترة، في محاولة لاستئصال بذور المقاومة، إذ أنها لم تتوقف منذ أن سجلنا أولاها سنة 1504 لتستمر إلى عام 1548 . وخلال هذه المدة كلها كانت قرية الخروب قاعدة العملية الجهادية الوحيدة.

توجد دور قرية الخروب موزعة على ارتفاع 400م. منتظمة بالمنحدر الذي يخترقه وادي صغير سريع الجريان. تتمثل القاعدة الحربية في القلعة التي أعاد بناءها على أنقاد القديمة المعروف لدينا المقدم أبو علي الحسن خلال الفترة السابقة. وبذلك غدت العقل المدبر لحركة الجهاد، ومقر القيادة الأمامية لشفشاون العلمية، برز بالقرية عدد من مقدمي الجهاد، بلغ العدد الذي أحصيناه بأسمائهم عشرة مقدمين، سنتعرف على أدوارهم الجهادية خلال الصفحات التالية:

ينبغي ملاحظة إلى أن جبل حبيب كان من الجهات السباقة إلى تأسيس نظام المقدمين خلال هذه المرحلة الثانية، إذ أنه بدون أي منازع الجبل الوحيد المتزعم لحركة الجهاد في الشمال الغربي المغربي، بعد الوهن الذي أصاب كل من جبل مجكسة وأنجرة وودراس خلال المرحلة السابقة. وعلى الرغم من أننا سجلنا أول اهتمام محمد الشيخ الوطاسي بترتيب المقدمين سنة 1502، إلا إننا نعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد إعادة لذلك الترتيب فقط، سيما وأننا نعلم أن شفشاون العلمية كانت دائبة النشاط الجهادي قبل ذلك التاريخ، سواء ضد طنجة أو أصيلا، ولم يكن في إمكانها الاستغناء على موقع جبل حبيب، وبالطبع لن يحول دون ذلك الاعتقاد عدم إطلاعنا

(1) كان الجبل قد خسر تلك الأراضي نتيجة تكوين ما سماه البرتغاليون بحوز أصيلا، عملا باتفاق 24 غشت 1471 المبرم مع محمد الشيخ الوطاسي (انظر التفاصيل في أطروحتنا: مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة. 2 / 337 .

على أسماء أولئك المقدمين وأنشطتهم.

لا نعرف اسم المقدم الأول المعين من طرف محمد الشيخ الوطاسي على الجبل، قبل اطلاعنا على القائمة التي قدمها لنا بِرْنَارْدُو رُدْرِيكسْ (Bernardo Rodrigues)، صاحب حوليات أصيلا (Anais de arzila)، بدءا من سنة 1508 السنة التي بدأ فيها سرد أحداث أصيلا وعلاقاتها بالناحية المجاورة[1].

أقدم من نعرف من أسماء مقدمي جبل حبيب هو المسمى عليّ مكيك (Ale Moqueque) الذي لم نتحقق من النطق الصحيح باسم أبيه، إن كان الثاني دالا عليه، كل ما نعلمه أن صاحب حوليات أصيلا لم يدركه، فاكتفى بإخبارنا بالمكان الذي تم استشهاده فيه، واحتفظ له به ليدل على المرسى الواقع جنوب أصيلا وعلى الواد الواصل إليه. ولا تسعفنا مثل هذه الإشارة على تقديم بنيات أكثر وضوحا[2].

وحسب برناردو ردريكس فإن المقدم الذي خلف عليّ مكيك هو المدعو تمام الحريشي (Timas Hurrax, Hurraix)[3]. وربما كان هذا من بني حرشن، القرية المندرجة ضمن قبيلة بني منصور. ويبدو أنه تخلى عن مهمته كمقدم للمسمى عزوز الوطاسي (Ostacis Azus). لكننا لا نعرف عنه بدوره شيئا أنه قضى، بعد تخليه عن المقدمية، أيام شيخوخته في الأسر منذ سنة 1539 أو التي بعدها[4]. وضآلة المعلومات عن المقدمين الأولين يقابلها وفرة الأخبار عن مجموعة أخرى نقدمها حسب الترتيب الزمني.

عليّ الروّاص:

نعرف أنه من أبناء جبل حبيب، من قرية الروّاص ذات الأصل العروسي[5]، لم

---

(1) الفكيكي: برناردو رودريكس، معلمة امغرب . 4 / 1195.

(2) B. Rodrigues: anais de arzila. 2 / 65 - 66.

(3) B. Rodrigues: anais de arzila. 1 / 241 ; 2/13.

(4) B. Rodrigues: anais de arzila. 2 / 13

(5) لا يزال أولاد الرواص أو الرواوصة بجبل حبيب وبني عروس وسماته، ربما كان الأصل من بني عروس القرن الرابع الهجري، والإسم محرف عن لفظ الرياس (الرؤساء) كما يظهر.

نتمكن من التعرف على نشاطه الجهادي إلا في يناير 1514 . أبدى المقدم عليّ منذ ظهوره كفاءة ومقدرة كبيرتين، إلى درجة أن أسلوبه في الغارت أصبح نموذجا، سار على منواله خلفاؤه المقدمون من بعده.

تتجلى خبرته في معرفته الجيدة للميدان: موقع الطلائع[1]، مداخل المدينة ومخارجها والتقاليد الحربية المتبعة. استغل تلك الخبرة لنصب الكمائن داخل الميدان وخارجه، وبذلك حصل على عدد لا يستهان به من الأسرى، سواء كان ذلك بميدان أصيلا أو طنجة، إلى درجة أن جنود المدينتين اعتادوا ترديد عبارة: "الله يحفظ الرواص"[2].

استعان عليّ الرواص بعدد من أشهر محاربي جبل حبيب، سبق للبعض منهم أن تحمل أعباء نفس المهمة، مثل تمام الحريشي وعزوز الوطاسي السابقي الذكر، ونضيف إليهم عبد الملك وعلي بن يعيش، وعليّ الحريش ومحمد يونس وعمر النجار وابنه الحسين النجار.

أقلق علي الروص راحة أصيلا وطنجة خلال أربع سنوات متتابعة. وقد أمكن لنا عدّ خمس عشرة غارة، علاوة على التي شارك فيها، سواء مع قواد شفشاون وتطوان والقصر الكبير إزاجن، أو تمت ضمن حركات محمد البرتغالي، ويمكن الإشارة إلى ما قام به في صيف عام 1516 بمعية علي بن راشد بالهجوم على طلائع أصيلا[3].

نعرف من خلال الحوليات أن عليّ الرواص استمر في مهمته إلى آخر سنة 1518، ففي دجنبر السنة نظم محمد البرتغالي غزوته المعتادة نحو أصيلا وطنجة، واعتاد رجال شفشاون الذين ترأسهم المولى إبراهيم السير في مقدمة الغارات، وكان الرواص أحد شهداء تلك الغزوة[4].

عبد الملك

اهتم صاحب حوليات أصيلا بتنقلات خليفة علي الرواص، المدعو عبد الملك

---

(1) Atalacia . نقطة الحراسة الموضوعة بجوار المدينة المحتلة.

(2) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 147, 148, 149, 151,213, 214.

(3) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 147, 255, 259, 206.

(4) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 267, 268.

(Amelix) بين أصيلا وطنجة، وبذلك حصلنا على صور متلاحقة من مقاومته على مدى ست سنوات، من سنة 1519 إلى استشهاده سنة 1525 . سبق له أن أسر في وقت سابق لظهور عليّ الرواص بميدان طنجة، ونقل إلى البرتغال، ولكنه تمكن من الفرار والعودة إلى الجبل وقريته قلعة الخروب، والعمل إلى جنب الرواص[1].

سلك عبد الملك في عمله الجهادي نهج سلفه، وزاد عليه تحركاته السريعة بين الميادين، فخلال ست سنوات حارب في ميادين الثغور الأربعة، خاصة ميدان طنجة، التي قال عنها صاحب حوليات أصيلا : "إنها فقدت حريتها طيلة حياة عبد الملك"[2].

اعتمد عبد الملك بدوره على مجموعة المحاربين التي عملت إلى جانب الرواص، إذ تجاوزنا حضوره الغزوات مع مولاي ابراهيم العلمي ومع قواد الأقاليم والحركات السلطانية[3]، تبين لنا أن عبد الملك قد ملأ فراغ الست سنوات التي خصها للجهاد بالتناوب مرة على طنجة ويوما آخر على أصيلا، نتج عن كل ذلك أسر أكثر من مائة فارس من كبار رجال المدينتين[4].

والملاحظ أن عبد الملك تجول بين جميع طلائع ميدان أصيلا، ولكنه ركز جهوده على عين القصب[5]. نستطيع الإشارة كمثال على أسلوبه الحربي أن أصيلا ظلت مقفلة الأبواب طيلة الأسبوع الثاني من يونيه 1523، كما أن القافلة التجارية الأسبوعية المنطلقة من فاس عبر القصر الكبير في اتجاه مدن الشمال المحتلة، لم تستكمل مهمتها إلا بصعوبة[6].

---

(1) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 13,14.

(2) B. Rodrigues:anais de arzila. p.277; Louis de Sousa: C. do D. Joao III.

(3) بجانب محمد البرتغالي سنوات 1520, 1524,1522, 1525 .

(4) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 277; 2 / 10-11.

(5) طالع عين القصب (Alecasapo, Alecasabo)، طالع واقع واد الحلو، قائم عند التقائه بواد بوگنون . (انظر أطروحتنا : مقاومة . 2 / 490).

(6) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 420, 421, 426.

وفي الوقت الذي تعرضت أصيلا خلال سنة 1525 لحصار دائم، كانت لعمليات عبد الملك حسابها أيضا، إذ أن جنودها تخلوا عن الخروج إلى الميدان مدة شهري يوليوز وغشت كثرة ما رابط رجال جبل حبيب بالميدان. ففي يوم من أيام شتمبر 1525 أغار عبد الملك كعادته بعشرين فارسا وسيطر على طالع عين القصب، في وقت أعدت فيه أصيلا قوة مكونة من مائتي فارس. ففي ذلك الظروف والمكان استشهد عبد الملك مع جماعة من رجاله[1].

علي بن يعيش

وبالطبع فإن استشهاد عبد الملك لم يوقف العمل الجهادي على الرغم من أن صديقه بن يعيش وقع أسير في نفس اليوم بميدان طنجة مع جماعة من رجال جبل حبيب. غير أن عبد الملك لم يطل مكثه في الأسر، إذ أن مو[illegible] ابراهيم العلمي بادر إلى افتدائه واختياره لرئاسة الجهاد بالجبل[2].

وربما كان أصلا من قرية بني أبي العيش المعروفة لدينا من قرى بني حزمار، من الأسر الإدريسية القديمة المستقرة بالمنطقة. نعرف عنه قبل تصدره قيادة الجهاد أنه كان من جملة رجال الرواص قبل 1514 ثم عبد الملك. تولى مهمة المقدم منذ شتمبر 1525.

افتتح عمله الجهادي في أكتوبر السنة، بعد أن تسلم رمح عبد الملك وتأبط كميته وحمل دراقته والاقتداء بأسلوبه في الجهاد مثلما جرى به التقليد. استغرق علي بن يعيش طيلة ثمان سنوات في التحرك بين طنجة وأصيلا[3]، أمكن خلالها الحصول على عدد هام من الأسرى البرتغليين، وفي دسمبر سنة 1533 وقع أسيرا بميدان أصيلا، فتم افتداؤه بثمن غال جدا بلغ 150000 ريال[4].

(1) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 2/11.

(2) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 2/ 252, 253, 254.

(3) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 2/256.

(4) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 2/65-66.

وهنا نشير إلى المساعدة التي قدمها جامع القرويين لجبل حبيب على عهد علي بن يعيش، فبمجرد أنه وصل إلى علمائه نبأ المعركة التي خسر فيها أهل الجبل تسعة من أجود خيل المجاهدين، بادر علماؤه إلى مدهم بعدد آخر، كان ذلك بعد ماي 1526[1]. وهذه إشارة جد هامة تؤكد تأكيدا قاطعا على حضور التضامن الوطني ومرافقته لحركة المقاومة بالشمال الغربي، على الرغم من أن علاقة جبل حبيب بالقرويين لا تسمح النصوص بالذهاب بها إلى أبعد من الإعلان عنها.

اختلفت عنا أخبار مقدمي جبل حبيب منذ سنة 1533، ولم نتعرف على اسم آخر زيادة على الأسماء التي قدمها لنا صاحب حوليات أصيلا. ومن الإنصاف ألا نغفل بعض المجاهدين المرموقين بالجبل خلال هذه الفترة من مساعدي المقدمين السابقين.

فهذا محمد بن يونس (Mohamede Iuner-Hunez)[2]، تعرفنا عليه منذ عام 1517، حينما كان برفقه المقدم الرواص، وهو معروف لدى رجال حامية أصيلا لكثرة الغارات التي شارك فيها، أسر في إحداها فافتداه المولى إبراهيم حاكم شفشاون في أكتوبر 1523 مقابل إطلاق سراح أحد رجال حاكم أصيلا، كان قد تم أسره منذ سنة1518، ولم يتوقف عن المشاركة في الجهاد إلى أن اختفى عنا هو بدوره سنة 1533[3].

ومن الفرسان البارزين المدعو علي الحريشي (Ale urrax)، ربما كان أخا لتمام الحريشي السابق الذكر. ظهر هو أيضا ابتداء من سنة 1517، واختفى سنة 1525، دون أن يقع التصريح من طرف حوليات أصيلا بأسره أو استشهاده.

ونعرف كذلك خلال هذه الفترة المدعو عليّ زيدان (Ale çaidao) من فرسان الجبل البارزني، عمل إلى جانب عبد الملك، ويظهر أنه أسر أثناء إحدى مناوشات آخر سنة 1522، تم افتداءه مع فارس آخر من تطوان يدعى محمد ثم احتجب عنا منذ 9

---

(1) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 1/ 241, 363, 364, 378. 2/13.

(2) B. Rodrigues: anais de arzila. p.437.

(3) B. Rodrigues: anais de arzila. p. 386. 2 / 30; L. de Sousa: C. do D. Jouo III. p.72-75.

ماي 1526[1].

ويمكن الإشارة إلى أسرة النجار العروسية، من قبيلة بني ومراس المجاورة بجبل حبيب، من جهة الجنوب، لا يفصلها عنه سوى واد الخروب. أول أفراد هذه الأسرة الحسين النجار، مقدم جبل بني ومراس الذي تحول إلى حماية شفشاون العلمية منذ 1514، على ما يظهر، حين عين عليه علي فرناندو مقدما. عمل إلى جانبه يعقوب بن عمر النجار. كان أفراد الأسرة رهن إشارة جبل حبيب في تحركاتهم، ثم الحسين بن يعقوب. وحينما وقع والده في أسر رجال أصيلا نظم مع جده عمر النجار حملة مع عشرين فارسا في محاولة لإنقاذه[2].

رافق الحسين النجار المقدمين عبد الملك وعليّ بن يعيش. وحينما وقع بدوره في الأسر قال عنه صاحب حوليات أصيلا: إنه كان من أخطر الأسرى. وقد فضل بعد افتدائه الانتقال لخدمة قائد القصر الكبير سنة 1530[3].

والواقع أن غياب الوثائق ما بين 1533 و 1537 جعلتنا بعيدين عن معرفة أحوال جبل حبيب، إلا أن هذا لن يحول بيننا وبين تصور استمرار الجبل في القيم بالدور المنوط به. والجديد الطارئ خلال تلك السنوات هو جنوح كل من البرتغاليين والوطاسيين في شخص أحمد الوطاسي إلى الهدنة.

ونعتقد أن مقاومة الشمال الغربي للوجود البرتغالي، ودور جبل حبيب هما اللذان فرضا على البرتغاليين والوطاسيين معا إدخال المولى إبراهيم العلمي طرفا من المفاوضات منذ 9 غشت 1537، إذ أن المبعوث البرتغالي لاحظ بقوله: "لا يمكن مهادنة السلطان ومتابعة الحرب مع مولى إبراهيم في نفس الوقت"[4]، بل إن السلطان كان قد فوض للشريف العلمي الإشراف على تسيير مباحثت الهدنة عامة. على الرغم من أن بنود الهدنة المرتبطة بالثغور الشمالية[5] نصت على إعادة السلطة الشرعية

(1) B. Rodrigues: anais . p. 2/13. 157, 159.

(2) B. Rodrigues: anais . p.2/262,266.

(3) S. I. H. M. Portugal: 3 / 113 .

(4) البنود هي: الأول ، الرابع والسادس.

(5) كان البرتغال قد سيطروا على حوزي أصيلا وطنجة بناء على الاتفاق المنعقد مع محمد الشيخ الوطاسي في 24 غشت 1471، إثر احتلل المدينتين. (ح. الفيكيكي: مقاومة: 2 / 334).

لأحمد الوطاسي على أحواز المدن المحتلة(1)، إلا أن الأمر لم يتغير بالنسبة لأهل جبل حبيب الذي يهمنا أمره.

فقد ظل من المحذور على أهل الجبل العودة إلى عزائبهم السهلية الداخلة في حوز أصيل البرتغالي، والنزول إليها بقصد الاستغلال الفلاحي، إلا بشروط، اقتضت أولا الحصول على إذن حاكم أصيل، والالتزام بأداء ضريبة مقدارها "دوبرة برتغالية"(2) عن كل محراث (البند الأول). وإذا حدث عدم الحصول على الإذن المذكور، يكون من حق حاكم أصيلا مصادرة ما ضبط بحوزة متجاور الحدود، إضافة إلى أداء غرامة أقصاها خمسور گروش برتغالية (البندان الرابع والسادس).

ما كان لهذه الهدنة أن تعمر أكثر من سنة، ففي الغلب انتهت بوفاة المولى إبراهيم العلمي سنة 1539، وتأكد هذا منذ السنة الموالية حين عبر أهل الهبط على رفض الهدنة ومن ورائهم قواد المنطقة، ونشير بالنسبة لجبل حبيب إلى محمد بن ابراهيم حاكم شفشاون الجديد، فإلى غاية يوم 12 يونيه 1542 لم يكن حاكم أصيلا قد توصل بأي مقدار من ضريبة المحاريث. وأكثر من هذا فقد أصبح نقض القواد للهدنة الوطاسية البرتغالية أمرا نافذا منذ يوليوز 1542(3) وبذلك عادت غارات جبل حبيب إلى ما كانت عليه في السابق، وتلقيه لغارات كل من أصيلا وطنجة.

ويمكن تتبع الغارات المتبادلة بالنسبة للجبل إلى غاية 1548، فبعد غارة جبل حبيب على أصيلا حسب مراسلة 2 غشت 1544، جاء رد أصيلا وطنجة، المشترك عنيفا على قراه(4)، وجسد رد فعل قواد الهبط ضد أصيلا في نوفمبر 1548(5)، وهذا هو آخر ما توصلنا إليه عن دور جبل حبيب قبل الجلاء البرتغالي سنة 1550 . ولابد أن الوضع قد تغير بالنسبة بالجبل بسبب ذلك الجلاء الذي سيعد نقطة النهاية لفترة دامت تسعا وسبعين سنة.

---

(1) S. I. H. M. Portugal 3 / 163; Espana 1 / 83-8; B. N. L. Fundo General p.181.

(2) S. I. H. M. Portugal 4 / 76-81; B. Rodrigues: anais . p.364-366.

(3) A. N. T. T. chan, Joao 3 Livro 4 . fl. 101v...

(4) القواد هم : محمد بن المولى إبراهيم حاكم شفشاون، الحسن المنظري حاكم تطوان، عبد الواحد العروسي حاكم القصر الكبير، الناصر العروسي، قائد العرائش، أحمد خديجة، قائد إزاجن.